المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السادس والستين

١ مارس (اذار) سنة ١٩٢٥ — الموافق ٦ شعبان سنة ١٣٤٣

ديوان ولي الدين يكن

اشكر لادارة هذه المجلة الجليلة تحفتها السنية لي ولسائر قرائها بل لرجال الادب العربي قاطبة بتمثيلها ديوان أوحد عصره المرحوم ولي الدين يكن بالطبع وتيسيرها لعشاق فرائده الغالية من الفاظ شريفة واغراض عالية ان ينقعوا غلة في الصدور او يقتبسوا هدى من ذلك النور . ولقد كان حظي من هديتها اكبر فاليها حمدي الاوفر لان تلك الهدية قد اتاحت لي ان ارى واسمع ذلك الولي الحميم والاديب العظيم كأنهُ كلما طالعت كلامه يردّه اليّ محيي العظام وهي رميم

انقضى شهران وانا اذا خلوت بنفسي وامكنني فرصة ساغحة بين الشواغل التي تملأ وقتي في هذه الايام لجأت الى ديوان ولي الدين أجدد ذكرى زمن خلا وأعيش عيشة عهد منقضٍ من صباي تضاعفت على النوى مسراتهُ ونسيت مساوئهُ ومضراتهُ فعاد اليّ ذلك الصديق الصدوق والمحب الحبيب ولي الدين ماثلاً بوجهه الوضّاء باشّاً تلك البشاشة الرقيقة يشدني من روائع معانيه وأساليبه ما كان يشدني في سالف عهدي به . وعدت اطربهُ بنفس الطرب الذي كان يحامرني في تلك الايام الطيبة عند سماعي ذلك القريض الصادر عن نفس اديب لفظهُ لفظ افصح العرب وقلبهُ قلب اكلف اهل الحفاظ بكل كريم من تراث الشرق وجميل من عاداته واخلاقه وفكرهُ فكر مجدد متجدد عقيدتهُ ان مجاراة العصر في كل ما احدث من آيات العلم والصناعة والفن والبيان سرّ التقدم والتقدم البقاء وان بالجمود التأخر والتأخر بدء التلاشي والفناء

لما فوجئت اللغة العربية بطور الانحطاط ودخل الشعر العربي في دور التعمل وتحوّلت

أدواته الثانقة للاماديح والمُلقيات بعد به الناظمون بعداً كبيراً عن تصوير حقائق نفوسهم كما كان سابقوهم يفعلون في الجاهلية وصدر الاسلام وظلت هذه الجافاة بين الصدق والتريض الى أن قيض الله في الشام ومصر رهطاً من المصلحين اعلام هذا العصر تنكبوا بالشعر عن تلك الطريقة المغرقة الفاسدة وعادوا به الى ابداء خبايا سرائرهم واظهار كل حادث كما يتمثل في مرائي ضمائرهم وفي مقدمة هؤلاء ولي الدين

اجل كان في طليعة المقربين لنا بعده اولئك المتجرون بالنظم مسافة الاختلاف بين حقائق نفوسهم وبين ما يصفون من وجد غير موجود وعيد غير معهود وحمد في غير محمد وثناء لم يوجه الاّ لاستجداء والم كتب في وقت سرور وحيلة نبتت من نية الحنث

لذلك جاء ديوان ولي الدين مجموعة رسوم كأنك تشهد بها الوقائع التي شهدها وتحسُّ من النوازع ما احسَّهُ لديها على ما سنبينهُ بطائفة يسيرة من مختاراته قبل ختام هذا المقال. وان مطالع ذلك الديوان ليستخرج منهُ — والصواب ما يستخرج — أن ولي الدين كان عنيف النفس وديعها لا وضيعها نزيه الطبع غيوراً باصلاح مدلاً بعلم معتدًّا بخلقه عالي الشيمة وفيًّا لبلاده شديد الغضبة لامته ثابتاً في المودّات مترفعاً عن الموجدات جريئاً على الجمهور فيما يخالفهُ به من الرأي بقدر اخلاصه في رأيه لمصلحة ذلك الجمهور سمح الضمير في عقائد الخلق قليل الحيلة أو فاقدها في امر الرزق معذباً بخاصة شأنه وغير واجد عزاءً فيما يراهُ من حوادث أوطانه

ومطالع ذلك الديوان يجد من حرص الشاعر على السلاسة والانسجام والجلاء في الجُمَل والمفردات ومن ايثاره للسهل على الجزل وللجزل على الوعر وللصافي على المشوب وللتبسط ولو باسهاب على الحشد ولو ببلاغة يجد عوامل البيئة المرغمة والفطرة المنعَّمة ويستشف ملكة ناثر قدير تحت أعاريض الشاعر الكبير

غير ان لكل شاعر حالة عامة تبعث فيه الشعر وحويلات خاصة تنصبّ فيها انصباب الروافد في النهر . فلان غزل وفلان عاشق . هذا حزين وذاك مطاع . واحدٌ أميل الى الهجاء وآخر أنزع الى المدح او الرثاء الخ الخ . ولكل منهم باعث من الحياة حيٌّ في نفسه الحالة العامة لغرض التقريض مطبوعٌ بطابعه الذاتي وهذا الباعث يتأتى اما من كونه محاربًا أو موادعًا . غنيًّا مترفًا أو فقيراً مدقعًا . شريف المحتد أو محدث النعمة . فالنعمة والبؤس من غزل واحد والقياس والنوع والرسم والنقش والتصريف متنوع بتنوع الحويلات الطارئة الوقتية

وولي الدين ؟

قد عانى آلام خصاصة لم يخلق فيها ولم يخلق لها فهي المحرك الاقوى لنفسه والمستنزل الاعظم لاهاميه وقد فطرت قلوب محبيه رثاء لهُ حيًّا قبل ان تفطر قلوبهم رثاء لهُ ميتًا فهي قد كانت ظلامتهُ الكبرى ولكن ربما كان فيها سر عظمته الخالدة فلننظر في تحليلها قليلاً

حياة ولي الدين كانت مأساة شهدت بعضها . من أشد الكوارث في هذا الشرق ان ادباءهُ — اريد الادباء بالمعنى الصحيح — قد عاشوا اتعاسًا. لا أعدُّ نفسي فيهم الاَّ من قبيل الانتساب الى الحرفة وخبرتي ضيق الرزق من شق القلم. ولقد شهدت أحزانًا وآلامًا جمة مُني بها المعاصرون من ناثرين وناظمين ورأيت ضروبًا من بؤسهم وشاطرت غير واحد منهم كمدهُ ومن اولئك الجياع العطاش المنهوكي القوى المصابين في اجسامهم أو عقولهم او اعراضهم احيانًا أو في كلها مَن باكيت مرجوداً أو بكيت مفقوداً في أفظع حال عرفها الناس. ولكن الشقاء على الصورة التي اتخذها مثلاً لي في ولي الدين كان نسيج وحده وكان غير مسبوق المثال في الكثير مما بصرت به أو سمعت عنهُ. سوى انني ابادر فاقول ان الخطوب التي تألبت على ولي الدين لم تمس كرامتهُ يومًا في شيء بل زادتهُ كرامة ولم تلحق بشامخ قدره مهانة وانى كان لقوة في الوجود ان تصل منهُ الى موقع الصيانة. غير انني اذا صوّرت الاسد وقد مات قرمًا لا ذليلاً ولا هرمًا لانهُ خالف خلق السبع الوحشي بتعففهِ عن تصيد غير الحلال من رزق هذه الدنيا دنيا الفوز للسبيح بمخارمها والمستحل مغارمها دون سواه فما في ذلك الا تقرير حق وتقريع في محله لهذا الشرق

اكتب هذه المسودة على ظاهر درج من الورق لم اجد غيرهُ بين يدي في باطنهِ دعوة الى عرس. الى ذلك العقد الذي يسمونهُ فرحًا وليس في الغالب فرحًا الاَّ من باب التفاؤل . حياة عجب واكثر ما فيها السخرية . انها تسخر منا كل ساعة بتناقضاتها وفي هذه المتناقضات كم من عبرة ولكن هل نحن معتبرون . أخط كانت الامس والحداد سيفي منقلب البشرى بالفرح. ألا بئست الحياة وهذا منقلبها. على ان ما أخط ليس رثاء جديداً لصديقي البائت في رحمة الله منذ بضع سنين — ايذكر أحد صديقًا لهُ وقد انقطع عنهُ كذا سنين وبخاصة اذا كان ذنبه انهُ مات ؟ معاذ الله أن ادعي مخالفة للعالمين في نسيانهم لموتاهم وان عزوا عليهم ولكن أقول لا للتمدح بل للحقيقة ان ودادي لولي الدين جاوز قليلاً حكم الاثرة المتعادية التي تترتب بعد أجل احبائنا الذين تولوا اجلّ ذكراهم لاختصار الحزن واستئناف المسرات ان كان فراقهم قد قطعها علينا حينًا . ألا أيها الحبيب لتسق طيفك

المثل امامي الآن هذه العبرة الحزينة الجارية من صميم قلبي . اني لاسطر هذه المقالة في ديوانك وكلما مددت يدي اليهِ تناولتهُ دامع العين وازداد جرأة على زمني فاقول انني ما ذكرتك مرة في الخطرة او بين الاحباب الاَّ وانا دامع العين وما خطرت ببالي صورتك النورانية في تلك السحابة السوداء التي احاطت بها سحابة عمرك القصير الاَّ وانا دامع العين . فلارجع الآن الى تلك الصورة التي كنت شارعاً في كشف الحجاب عنها ليتبين الاعقاب كيف جهل عليك زمنك وما فعل بك اهلك ووطنك فيقترن تمجيدك الحق بالعتاب الصادق للناس والعقاب الواعظ للآخرين

ما هو نوع ذلك الشقاء ؟

كان ولي الدين في اخص ما كان وديعاً هادئاً رخيم الصوت والكلام لين شعاع المبصرتين وراء النقاع المنظرتين يلمح في أعلى خديهِ دواماً تجمع رقيق من البشرة كانهُ هُامة بابتسامة . ولم يكن لغير الواقف على خفي امرهِ الظاهر على البعيد من سرهِ ان يتبين ان تلك الوداعة هي لمعان أخرجهُ الادب من جوهر مضغرم وطفا بهِ على وجه الغطرة في هدوء هو اطمئنان البحر الساكن حين وفيهِ ما في البحار من كنوز وأخطار

وأن تلك الابتسامة المبدوء بها أبداً ولا تكتمل ان هي الاَّ رجعة العاجز عما نوى من الشأن الكبير الى الشأن الصغير بعد ان ذاق مرارة الخلاف بين سمو المعتقد ورقة الخيال وبين قوة الامنية وقصور الاداة دون تحقيقها وبين العظمة فيما يمثلهُ الخيال والاستمرار في معاكسة الحقيقة وبقيت عن ذلك كلهِ على وجههِ اشارة للاستهزاء بالحياة مقدورة بقدر ما تسوى في بعض احوالها هذه الحياة

وان تلك النسومة في الصوت هي الرجع البعيد من نبرات النعي والامر في حناجر آبائهِ وجدَّاراتهِ الغزو والفتح بين صليل السيوف ورنين الخناجر تجهر بها حلوق أجدادهِ ادتها اليهِ الطبيعة المفتنة الفاتنة وقالت لهُ اجمع كل قوى ذلك النسب الجليل حرباً وسلماً وكن بلبلاً يشدو او هديلاً يسجع ولا شيء غير الطائر المترنم

اذا علمنا ذلك من شأن ولي الدين ثم علمنا ما أحاط بتلك النفس المتأنقة المترفعة المتنزهة الصادقة العلياء من الاسباب الدقاق والغلاظ التي تخرقها حزّ المناشير وتشدها شدّاً الى الارض ورأيناهُ من وراء تلك الوداعة يتلب الطرف لالتماس وجوه الخلاص وبرخامة ذلك الصوت يدافع عنهُ جيوش الكوارث فلا يضع ويغفل حتى يرضى لنفسهِ بالاقل ولكنهُ يتوخى العزاء عنهُ من انشراح النفس لسعادة وطنٍ كان حبهُ ملء جوانحهِ

بل وطنين كانا يمتزجان في حبهِ امتزاج بلد واحد السلطنة العثمانية ومصر فاذا هو لا يجد هنا وهناك سوى الشقاق والانحطاط ونُذُر الهلاك

ثم اذا علمنا انهُ في حكام الدولتين لم يجد من يقدرهُ قدرهُ وفي قرّاء الامتين لم يصب من الحظ الاَّ تصفيق بعض المصفقين بلا أدنى جزاء آخر وانهُ حتى في اهلهِ الادنين لم تتصل رحمهُ برحمة وانهُ كان يرى من حاجتهِ ما يراهُ غيره من النفائس والكماليات بسبب ذلك المجد الفخم الذي جنى عليهِ حتى كأنهُ مكتوب منذ الازل ان نوابغ الدنيا الاَّ قيلا ندر لا يخرجون من بيوت الامارات بل الامارات تخرج منهم. فكيف حال ولي الدين وبين جنبيهِ نفس ملك وبداءهُ لا تملكان ما يملكهُ أقل صعلوك. ما خالهُ وهو اذكى الناس الاَّ بما يَرُدُّ عليهِ وافطنهم الاَّ لما فيهِ ربح واحفظهم الاَّ لما فيهِ خير لم دونهُ واقدرهم الاَّ على ما يصلح شأنهُ وشأن عيالهِ وأصبرهم الاَّ عند ما تكون الشدة على الصديق او الوطن : فعندئذٍ يشكو ذلك الذي تصونهُ عزة نفسهِ عن شكوى خطب يقع عليهِ وان فدح ، عندئذٍ ينأم بآلام غيره ذلك الذي يكتم آلام مهجتهِ ، صارخًا صرخاتهِ الخالدة المروعة للادهار بشدتها لامتزاج المهِ الذاتي بآلام صديقهِ او وطنهِ في غور الخطب الذي يصف

هذا النوع من الشقاء بلاء ولي الدين وذاق مرارته الى الثالثة ولئن مُثِّلت في اطوار من حداد صور الادباء العظام والعلماء الاعلام الذين قربهم الشقاء للجهل قربانًا تضعضعت لهُ اركان المجد في الشرق فإن صورة ولي الدين ستكون في اسناها نوراً واسماها محلاً وأبقاها على الآباد

من ذلك المجد الحالك وذلك القلب الحزين خرجت اتقى الجواهر التي اجتمعت في ديوان ولي الدين فلنجل الآن نظرنا في ذلك الديوان ولنر القارىء بالامثال ما في خرائد الالماس البديعة خلال تلك العقود المنظومة من دموع يسطع فيها اواناً وهج روح متشظية شعاعًا ولنروما في العتيق المفصل بين تلك الفرائد من تلهب عتيقة حمراء تسيل رحمة وشفقة على الانسانية المعذبة ولنر ما في الزمرد والزبرجد من آمال وأماني وبشريات بديعة الاضواء يرّاقة الامواه سوى أن نكات حالكات من المخاوف والاشجان تتراءى في جوانب ذلك الصفاء تراثي السحب المنذرات في جوانب السماء

في كل مكان من ذلك الديوان بث وتألم . شكوى وتظلم . خاطر ثائر لاشرف المطالب . قلب غير مطمئن . موج قائم . لج مضطرب . بركان يوعد بالتفجر . وكل اولئك مجاجة

نفس دامٍ وصرير متكسر من الاقلام وتساوق اخطر القوى بالفاظ لها توافق الانغام . لم ينفرد بذلك أنيق نظامه عن الرشيق المرسل من كلامه وما ولي الدين في شعره الا مثله في نثره وما هو في نثره الا مثله في شعره حيثما قرأت أصبت الفوائد تلو الفوائد ووجدت الفرائد في أثر الفرائد على اني سأجتزىء فيما انقله من شعره للاستشهاد بما يثبت الصورة الصغيرة التي مثلت بها وجهاً من وجوه في ترجمة ذلك النابغة الذي قلد هذه الاوطان فخراً تتباهى الاعقاب به الى نهاية الازمان

ولي الدين في وطنياته

قال رحمهُ الله راثياً لفروق ولنفسه

تفدت دموعي والاسى لا ينفد اليوم يبكيني ويبكيني الغدُ
بالله يا وطني أمالك راحمٌ أكذاك تاركك كل يوم توقد
أفروق مالك في البرية منجد كلاَّ ولا لي في البرية منجد

وقال قاضياً من اجل الوطن اشد قضاه واعظم على السلطان عبد الحميد حين خُلع

ضاعت عقود الملك ما بين الترائب والنحور
والشيخ بات فؤادهُ في أسر ولدان وحور
ما زال معتصر الخنو د هوى ومعتصر الخصور
واذا انتضت ليلاتهُ وصلت بليلات الشعر
أهدى الفتور لقلبهِ ما بالنواعظ من فتور
واستغفرتهُ عن الرعا يا كل آنسة نفور
تختال من حلل الصبا بة في الدمقس وفي الحرير
والجند عارية منا كبها متصعة الظهور
خمص البطون من الطوى رقت فعادت كالسعور
ان الزمان يغرُّ ثم يذيق عاقبة الغرور

وقال ذاكراً مصر في منفاهُ مشوقاً ان يمسح وجههُ ببعض ثراها

أهون بما يبكي عيون الباكي ان كان ما يبكيهِ غير نواك
يا مصر لا أنساكِ ما طاف المدى واخال ما في الناس من ينساك

اشتاق اخواني بنيك وانما يشتاق من صافاك من صافاك
قد كان لي ذكر بارضك سالف لا النيسل يجهله ولا هرماك
ايام انطقني واسمعك الصبا وغدوت طيرك اذ غدوت اراكي
واذا الاله قضى بوصلك بعدنا فلأمحن وجعي ببعض ثراك

وقال في سبيل الوطن عاتباً على رجال ومغاضباً مستجبي الحرمات من اولى المناصب

كفى حزناً ان الرجال كثيرة وليس لنا فيها نراهُ رجال
نحكم قوماً لا يبالون قائلاً وان قام كل العالمين فقالوا
اذا ارتقبوا امراً فذلك منصب او اطلبوا شيئاً فذلك مال
بغال تسوس الاسدَ شر سياسة وما ساس أسداً قبل ذاك بغال
قضيتم وعشنا بعدكم مرَّ عيشة تعالوا انظرونا يا جدود تعالوا

وقال يصف كلفهُ بالحريّة ابدع وصف

اسأليني اجبك عن آلامي علَّ يجدي لديك شيئاً كلامي
لست اشكو لك السقام الذي بي انت تدرين قدر ذاك السقام
انا والله صادق في ودادي ابديَّ عهدي قويَّ ذماري
لا يساميك في الجمال سامٍ لا يساميك في الكمال سام
بك جن الانام حبّاً ولكن قد تغاضيت عن جنون الانام
زودي الريح من اريجك بعضاً اخبري للورد في الاكمام
ان يكن للرياض منك نصيب فبكاء الطيور والاقلام
لم ينل منك وصلة ذو حياة ليت شعري هل جدت للارحام
ربما نالت النفوس مناها منك لولا حوائل الاجسام
تجتليك الامال لا بعيون انما تجتليك بالافهام

ولي الدين في غزله

انظر ما الطف هذه المداعبة مع الطيف

يا طيفها لا ترتجي معجلاً لا تقنع الزورة من مجمل
انى وحدي .. حيرتي مأمن فأنس الى صبك لا تجفل

ادنُ قليلاً .. قد أطلت النوى جد مرة . بالله لا تبخل
لو لم تكن تشتاقني نفسها يا طيفها ما كنت بالمقبل
عيناك عيناها . كذا كانتا والوجه ذاك الوجه لم يبدل
اعرف لحظيها برغم النوى فكم اصابا قبل ذا مقتلي
يظل قلبي خافقاً هكذا كأنهُ ألقي في مرجل
جسي بهذي الكف صدري ترى ما فيهِ من نار جوى موغل
أطلتي همٌ فلم انتبه الاَّ وقد اوغلت في المجهل
ان كان هذا ما دعوه الهوى فمثل هذا الليل لا يخلي

***

يا مهجتي . يا جلدي . يا صبا إن لم أمت وجداً فلا بدّ لي

ولي الدين في كمده

لا يترجَّم رحمهُ الله باخصر وابلغ من هذه الابيات . ما ازعمهُ في بقية العمر وما احملهُ على اعدائهِ !

سقى الله دارات القرافة ديمةً ترفُّ على قوم حنانك هجَّدِ
تعوَّد كل بؤسها ونعيمها وعشنا على بؤس ولم نتعود
احنُّ الى تلك المراقد في الثرى ولو استطيع اليوم لاخترت مرقدي
فانزلت جسمي منزلاً لا يملُّهُ يكون بعيداً عن أعادٍ وحُسَّد
وما تبتغي الحر في ظل عيشة تمرُّ لاحرار ، وتحلو لأعبد

***

لقد انصبتني ، والمتاعب جمة مسيرة يومي بين امسيَ والغد
ألمَّا يئن أن يستريح مجاهد الما يئن ان يبلغ السهل الصدي
تزهدت في وصل المعالي جميعها ومن يطلبها كالطلابي يزهد
وبتُّ ، تساورت في فؤادي مناهج تؤدي لخفض ، أو تؤدي لسؤدد
واني في بيت صغير مهدم كاني في قصر كبير مشيد
عفا الله عن قوم أتاني غدرهم فرب سيء لم يسيء عن تعمد
وكم من نفوس يستطيل ضلالها ولكن متى ما تبصر النور تهتد

ولي الدين في جزعه

قال راثياً ولداً له

بنيَّ لا الحظُّ فيك أسعدني ولا وفى لي بذمة أملُ
ألسنة العيش كلها كذبت وامتاز بالصدق وحده الاجل
ان ترتحل في صباك عن سكن آثرته فالجدود قد رحلوا
او تتخذ من معاشر بدلا معاشراً، لا يضيرك البدل
الله في لوعة أجرَّعها يعرفها في الانام من ثكلوا
يا كبداً من مناطها انفصلت ما خلت ان الاكباد تنفصل

وقال راثياً اخا له

ايا روح محمود عليك تحية متى ينقضي ما بيننا زمن البعد
تقدمتني نحو الذين تقدموا وكنت ارجي ان تعيش المدى بعدي
سأبكي وأبكي غدرة الموت جاهداً على ان جهد الموت أعظم من جهدي
واملأ آفاق السماء شكاية وان كنت ادري ان ذلك لا يجدي

ولي الدين في احتضاره

قال مودعاً كرب هذا العمر ومستقبلاً فرج القبر وهي آخر ما نظم رحمهُ الله

ترى ماذا وراءك من عجيب اذا فتحت يا باب المنون
مظاهرك الكون لنا ولكن اما ولد الحراك من الكون
قد استعصى الزجاج على عقول وقد سدّ الطريق على عيون
قصارانا الظنون فما عبرنا كذا إعصار ساحات الظنون
وما في دولة الارواح روح دنت من عرش سلطان اليقين

***

هذا والديوان مملوء بالآيات من كل ضرب غير اني آثرت الاستشهاد بما تقدم لتثبت منهُ في ذهن الذي يطالع هذه السطور صورة حقيقية لولي الدين في حيز قريب الجوانب تتمثل فيهِ تلك النفس المحترقة المضيئة كما تتمثل في نطاف الماء ساطعات الكواكب

خليل مطران